پژوهشگاه علوم انساني و مطالعات فرهنگي
آفاق الحضارة الاسلامية، العدد الخامس و العشرون، صص ۷۳-۸۹

أفاق الادب العربي في خراسان «من القرن الثاني الي القرن الخامس»

الدكتور السيد محمد باقر الحسيني*

الملخص:

بعد ان بسط العرب نفوذهم السياسي على ايران بدافع نشر الاسلام ، اخذت اللغة العربية تنتشر بين مختلف شرائح المجتمع الايراني لاسيما من انشغف بتعاليم القران والاسلام ، تلك التعاليم التي تنادي بالوحدة والمساواة والعدالة ، بنحو انه قلما عُثر على اثر علمي او تاريخي او ديني او اخلاقي طيلة القرون الخمسة الاولى لصدر الاسلام لم يُؤلف باللغة العربية او لم تُؤثر اللغة والادب العربي فيه ، ومن بين الاصقاع التي كانت للغة العربية حضور فعال ومؤثر فيها هي خراسان الكبرى .وقد بُذل الجهد في هذا المقال على بيان كيفية ورود اللغة العربية والاسباب المؤثرة في بقائها واستمرارها في تلك الديار المترامية الاطراف

الكلمات الرئيسية : اللغة العربية ، خراسان ، عوامل الظهور ، مدينة الحيرة ، المنتقدون العرب.

المقدمة :

يعود الاتصال السياسي والثقافي للايرانيين بالعرب الى سنوات ما قبل الاسلام ، أي في عصر الحكم الساساني ،وكانت حاجة الملوك الساسانيين الى ادارة واستقرار الاوضاع في المناطق العربية المتاخمة لحدودهم دفعتهم الى اقامة علاقات حسنة مع قبائل ذات

تاريخ وصول: ۱۳۸۸/۱۰/۵ تاريخ پذيرش ۸۸/۱۲/۱۷

*. استاذ مشارك في فرع الادب العربي بكلية الاداب، الجامعة الحرة الاسلامية بمدينة كاشمر
hosseini@yahoo.com

شوكة غايتها تثبيت الاستقرار والحد من حملات سائر القبائل العربية على المناطق الخاضعة لحدودهم .

هذه الضرورة حدت بهم الى استخدام كُتاب عرب في البلاط لتيسير امر اقامة العلاقات ، نظير عدي بن زيد الشاعر العربي المشهور الذي خلف اباه في مهمة الكتابة في جهاز الحكم الساساني

ورغم انه من السابق لاوانه الحديث عن التاثيرات الثقافية العامة لأبناء بلاد فارس على العرب ، الا ان بيئة امراء الحيرة (مناذرة العراق) التي تمتعت بحماية الساسانيين دلت على ان اداب حياتهم ومعاشرتهم وايضا اسلوب حكمهم كانت في الواقع تقليدا للبلاط الساساني ، وأوضح شاهد على ذلك بناء قصري الخورنق والسدير المعروفين بامر النعمان بن امريء القيس احد ملوك المناذرة (ابن قتيبة : المعارف :ص ٦٤٧ ؛ ابن واضح : تاريخ اليعقوبي : ١ / ١٧٢)

الا ان التعامل الاجتماعي والثقافي للشعبين على مختلف الاصعدة تم في السنوات التي اعقبت ظهور الاسلام ، وعلى وجه التحديد حين دخول الاسلام خراسان عبر عساكر العرب عام ٣٠ هـ .قد ادى الى نشوء الادب العربي فيها ، وقد تجلى الظهور الاول في مجال الادب القراني والشعر والنثر ، و ثمة مصادر قليلة حول مدى انتشاره في تلك الديار في القرنين الاول والثاني للهجرة .ولعل عدم اهتمام الولاة العرب بالانشطة الثقافية فيها و بعدها عن المراكز العلمية والادبية في الحجاز ودمشق وبغداد كانت من العوامل الرئيسة في ضآلة المصادر والمعلومات بين ايدينا.

ان الكتاب والمنتقدين المعاصرين العرب – انطلاقا من خلفياتهم - قلما اهتموا بالادب في تلك الديار واذا كانوا قد خصصوا صفحات بهذا الشان فانما يقتصر ذلك على الشعراء والكُتاب الذين ارتبطوا بطريق او بآخر باحدى القبائل العربية المعروفة ، ومن ثم لم ينبس ببنت شفة لعمدة الاثار الادبية المتعلقة بالفرس . ومع الاسف فان هذه الطائفة من الكُتاب خامرها احساس دفين - بسبب التفوق السياسي للعرب على الايرانيين - بان الادب العربي حكر على العرب وبالتالي يجب تناوله في اطاره العربي ، واي تحقيق وبحث في الاثار الادبية للشعوب الاخرى التي صنفت باللغة

العربية امر مرفوض .

ومهما يكن من امر فلابد من الاذعان بان الادب العربي في خراسان التي كانت جزءا من الامبراطورية الاسلامية لاينفك عن الادب العربي ، من جهة اخرى ان التفوق الثقافي للفرس على العرب قد انعكس في الادب العربي ايضا ، هذه القضية يتعذر انكارها او المرور عليها مرّ الكرام .

وبعد فتح ايران على يد المسلمين العرب هاجرت اليها قبائل مختلفة من العرب لاسيما النواحي الشرقية التي كانت تشكل ثغور الدولة الاسلامية الفتية وحطوا الرحال في مدن خراسان الكبرى نظير نيسابور ومرو وبلخ وهراة ولم يلبث طويلا ان تم تاسيس مراكز للثقافة الاسلامية فيها اما النواحي الغربية لايران فقد ظلت وفية للديانة الزرادشتية حتى بعد الفتح الاسلامي وظلت على وفائها مدة مديدة .

وقد اسفر دخول العرب المدن والقرى عن انتشار الشعر والموسيقى العربية.كما اسفر وجود الولاة العرب عن استقطاب الشعراء العرب والفرس بهدف اخذ الصلة والتكسب ، وبهذا النحو توفرت الارضية الخصبة للادب العربي كي ينهض في مدن ايران ، وقد اشار ابو الفرج الاصفهاني الى جماعة من هؤلاء الشعراء(ابو الفرج الاصفهاني : الاغاني : ٤ / ٨٥، ٤٠٣ ، ٤١٤ و١٣/ ١٥١ ؛ ١٥ / ٣٧٢ ؛ ١٦ / ٤٢١).

ويعود فضل ظهور الادب العربي في خراسان الى تعليم القرآن والحديث . حيث تم التاكيد والتشدد على هذين الامرين من قبل المسلمين الجدد ، الامر الذي ادى الى انتقال لغة القرآن الى جانب اصول العقائد من جيل الى جيل آخر وشكل جزءا لا ينفك عن الثقافة الاسلامية في تلك الديار.

لا شك ان الحضور الفعال للمسلمين العرب والصحابة والتابعين في فتح مدن كسمرقند وبلخ ومرو ونيسابور . كان عاملا مهما للغاية في نزوع الخراسانيين نحو المعارف القرانية والاسلامية وبذلك بدا الادب الديني وغير الديني ـ الشعر والنثر ـ بالانتشار وراح يبسط نفوذه على اللغة والادب الفارسي قرون متمادية ويحد من نشاطه بل يوصد الباب امامه ومن ثم اصبحت خراسان معقلا للعلوم الاسلامية والادب العربي .

وكانت اولى المراكز التعليمية هي الدور او المساجد التي كان الاطفال يتعلمون فيها القرآن باعتباره اساس القوانين الاسلامية وكان المعلم يستعين بالشعر والامثال العربية من اجل اثارة الرغبة لديهم على التعلم بنحو افضل وكلما ازداد عدد المساجد اتسعت رقعة تعلم اللغة العربية والقرآن بين الناس .

و ينبغي ان لاننسى ان اداء العبادات خاصة الصلوات الخمس باللغة العربية كانت من عوامل انتشار اللغة العربية في اوساط الخراسانيين ايضا.

ولم تسنح الفرصة للفرس لاظهار كفاءاتهم في الادوار الاولى حتى نهاية العصر الاموي و ظل العرب يحتفظون بعاداتهم وتقاليدهم في اوساط الايرانيين وكان يفوح من اشعارهم رائحة الجاهلية والاموية. حتى ان الشعراء الفرس قد راحوا يقلدوهم في الاسلوب والوزن والقافية والمحتوى و بلغت مهارتهم في تعلم الشعر والنثر حدا انه لم يكد ينتهي القرن الاول الهجري حتى ظهر شعراء نظير زياد الاعجم المتوفى قبل سنة ١٠٠ ه الذي اظهر مهارته في قوالب الشعر العربي كافة ، ومع ذلك فقد انتقده ابن قتيبة وهو من الفرس ايضا على ترصيع اشعاره بكلمات فارسية متهما اياه بضآلة معلوماته الصرفية والنحوية ، وكان يقول : (هو كثير اللحن ولهذا قيل له الاعجم لفساد لسانه بفارس). (ابن قتيبة : الشعر والشعرا :١/ ٣٤٥).

اما في خراسان فتمكن الادب العربي منذ النصف الاول من القرن الاول الهجري ان يشق طريقه ويجد له موطأ قدم ومكانة متميزة حتى انتهاء العصر الاموي ورغم ان الاختلافات والنزاعات السياسية في دمشق مركز الخلافة الاسلامية ادت الى تحول ملحوظ للانشطة الادبية الا ان خراسان ظلت بمنأى عن ساحة الصراع ومع ذلك فالتنوع الادبي الاعم من الشعر والنثر قد ترك بصماته على تلك الديار حيث تعتبر البساطة والاختصار والاجمال من اهم معالمه.

وتتلخص المضامين العامة للشعر في ذلك العهد ، في المدح والفخر بالذات او بالقبيلة او الرثاء او الهجو وغيرها من الاغراض.

وكان لآل المهلب الذين كانت لهم شوكة في خراسان ومناطق شرق ايران سهم وافر في دعم الادب العربي (ابن خلكان : وفيات الاعيان : ٥ / ٣٥٩ – ٣٥٠). يقول

زياد الاعجم في مدح المغيرة بن المهلب:

ان الشـــجاعة والســـماحة ضـــمنا قبـرا بمـرو علـى الطريـق الواضـح
فـــاذا مـــررت بقبـــره فـــاعقر بـــه كـوم الهجـان وكـل طـرف سـابح

ان حضـور الاسلام علـى السـاحة الاجتماعيـة واسـتقرار القبائـل العربيـة فـي نـواحي مختلفة من خراسان بعد ان كانت تنتقل بحثا عن الماء والكلأ ، وايضا اختلاط هذه القبائل بالاقوام الايرانية كان له انعكاس على الاشعار العربية للادوار اللاحقة. دون فرق بين الاشعار التي انشدت من جانب الفرس او تلك التي انشدت من جانب العرب الذين استقروا في تلك الديار ، وبذلك برزت وجوه التمايز والاختلاف عن الاشعار الجاهلية.

ولانلمس في اشعار تلك الحقبة المتانة التي كان عليها الشعر في الادوار الماضية ، كما ان الشاعر قد عزف عن وصف الناقة والمفازة واطلال المحبوب.

ومع ان شعراء هذا الدور كانوا قد اتبعوا الاسلوب الجاهلي واستخدموا مفاهيم كالشجاعة والكرامة واصالة النسب والعرق والسماحة والحلم في الادب كذلك استعانوا بمصطلحات اسلامية كالتقوى والعدل والصلاح والاستشهاد في سبيل الدين وقتل المشركين، وتكفيك الابيات التالية التي انشدت في مدح يزيد بن المهلب من قبل احد شعراء العرب في خراسان .

فقد وصف الشاعر ممدوحه بسحابة الربيع نظرا لجوده واخذه بيد الفقراء والمساكين (تاريخ الطبري : ٥/ ٢٩١ ؛ حسين عطوان : الشعر العربي بخراسان في العصر الاموي : ص ١٨٩)

مـــازال ســـيبك يـــا يزيـــد بحـــوبتي حتـــى ارتويـــت وجـــودكم لا ينكـــر
انـــت الربيـــع اذا تكـــون خصاصـــة عـــاش الســـقيم بـــه وعـــاش المقتـــر
عمـــت ســـحابته جميـــع بلادكـــم فـــرووا واغـــدقهم ســـحاب ممطـــر
فســـقاك ربـــك حيـــث كنـــت مخيلـــه ريـــا ســـحائبها تـــروح وتبكـــر

وفـي القـرن الثالـث والرابـع للهجـرة اخـذ العديـد مـن اهـل العلـم فـي خراسـان فـي الاضطلاع باللغة العربية واستعمالها في الشعر للتعبير عن عواطفهم واحاسيسهم ، ورغـم ان حركـة الشـعر الفارسـي اخـذت بالتنـامي والاتسـاع فـي العهـدين الغزنـوي والسلجوقي ، الا انـه لايمكن ان يقاس باللغـة العربيـة وازدهارهـا فـي القرنين الرابـع

والخامس(عزام عبد الوهاب : الصلات بين العرب والفرس : ص ٩٦) وبالتاكيد لايمكن انكار هذه الحقيقة وهي انه مع زيادة عدد الشعراء الذين انشدوا الشعر باللغة العربية في ذينك القرنين ، الا انه لا احد منهم يجاري الفردوسي وفرخي وانوري وعنصري ، بل ان كثرة انشاد الشعر العربي يعود سببه الى ان اكثر علماء تلك الديار كانوا على اطلاع واسع بالعربية التي هي لغة علمية و ترتبط بالدين الاسلامي يعرى لنضمام لها ، وكانوا ينشدون الشعر احيانا للتخفيف عن وطاة الالامهم وهمومهم واظهار ما يخالج صدورهم من عواطف ، كتلك الابيات التي تنسب الى ابي سهل محمد بن سليمان الصعلوكي من علماء نيسابور المعروفين حيث راح يبين اعراضه عن الدنيا ، ويقول (الثعالبي : يتيمة الدهر : ٤ / ٤٨٣).

سلوتَ عن الدنيا عزيزا فنلتها وجدت بها لما تناهت بامالي
علمتَ مصير الدهر كيف سبيله فزايلته قبل الزوال باحوال

وقد اشار كتاب (يتيمة الدهر) للثعالبي و(دمية القصر) لابي الحسن الباخرزي الى كثرة الشعراء في ذينك القرنين ، حيث سردا اسماء الشعراء الفرس الذين انشدوا الشعر باللغة العربية وكان عددهم يفوق عدد الشعراء الذين انشدوا بالفارسية الذين وردت اسماؤهم في كتاب لباب الالباب في الفترة ذاتها ، وهذا ان دل على شئ فانما يدل على هيمنة الثقافة العربية على المجتمع الفارسي اثر التسلط السياسي للعرب على بلاد فارس ، ولعل هذا التفوق على المسرح الادبي دام فترة طويلة لولا حملة المغول في القرن السابع التي خلفت دمارا هائلا طال مدنا كمرو ونيسابور والعديد من الكتب النفيسة في مختلف المجالات العلمية لاسيما مصنفات الشعراء الذين انشدوا بالعربية من اهل تلك الديار وضالة ما بقي منها في الكتب التاريخية .

ان شمولية اللغة العربية في مختلف المجالات العلمية والانتفاع من الاشتقاقات المختلفة لابداع الاصطلاحات والتعابير الفنية والعلمية ، كانت من العوامل التي دعت بعلماء الفرس في ذاك العصر الى تدوين اثارهم باللغة ا لعربية رغم انه لايمكن استبعاد الاسباب السياسية والدينية ، وعليه فلا مجال للتعجب اذا ادعى ابو ريحان البيروني ان اللغة الفارسية لايمكنها ان تحل محل اللغة العربية ابدا، قائلا :(لقد تركت اللغة العربية بظلالها على مختلف العلوم في كافة ارجاء العالم وسخرت

آفاق الحضارة الإسلامية، العدد «الخامس و العشرون»، ربيع و صيف ١٣٨٩ هـ.ش

قلوب الكثير من الناس لذا فالهجو باللغة العربية احب الي من المدح بالفارسية)(شوقي ضيف : تاريخ الادب العربي : ٥ / ٥٦٤).

لقد بذل العديد من الملوك والامراء العطايا للشعراء لذلك يمكن القول ان اغلب الشعراء كانوا يتكسبون من وراء الشعر ويعتبرون الشعر اداة لحياة يسودها الراحة والرفاه .وقيل ان ما جمعه انوري والابيوردي من شعراء البلاط السلجوقي من صلات وهدايا يفوق ما جمعه المتنبي شاعر القرن الرابع وابن هاني من وراء الشعر .والى جانب ذلك فان دعم الملوك الفرس للادب والشعر العربي كذلك الحال لدى الاسر ذات النفوذ والشوكة حيث كان الشعراء يتفيئون تحت ظلالهم وكانت اسرة ميكال في نيسابور من جملة تلك الاسر الذي اسهب الثعالبي في مدحهم والثناء عليهم.(يتيمة الدهر : ٤ / ٤٠٧ – ٤٤٠)

خصائص الادب العربي في هذا الدور في خراسان

لاشك ان الحكم العباسي فتح الباب واسعا امام تقدم الايرانيين على الصعيد العلمي والادبي . حيث تسلموا مناصب حساسة كالوزارة وقيادة الجيش ومنادمة الخلفاء ومناصب اخرى ترك تاثيرا كبيرا على عادات وتقاليد البلاط العباسي ، هذا التاثير لم يسفر عن التحول في شعر الخراسانيين فحسب بل عمت الاثار الادبية لمعظم البلاد العربية وقد قام شعراء كابي نواس وبشار بن برد بتحول ادبي وثقافي عميق في الشعر والنثر العربي فلا غرو ان يقدم الشاعر الخراساني الذي ينشد الشعر بالعربية على الاعراض عن القوالب الشعرية القديمة وابداع قوالب حديثة ، اما القوالب الشعرية فهي عادة ظلت تقلد قوالب العصر الجاهلي والاموي . وفي ذاك الزمان لم يتقدم الادب من حيث الكمية فحسب بل من حيث المحتوى ايضا حيث جارى اشعارالشعراء العرب ، يقول ادوارد براون في هذا الصدد(ادوارد براون : تاريخ الادب الايراني : ١ / ٦٥١) .: ان من كانت لغته الام العربية رغم مهارته في تلك اللغة جهل بالمرة اللغة الفارسية ولاجل ان نعلم ماهي التاثيرات التي تركتها الاشعار العربية للشعراء الفرس على هذا الصنف ، فقد التقيت بالشيخ ابو الفضل في كمبردج واغتنمت الفرصة وطلبت منه قراءة ثلاثين صفحة من المجلد الاخير لكتاب يتيمة

الدهر الذي كان مخصصا لشعراء خراسان معا وكان هو يدرس اللغة العربية في معهد اللغات الشرقية الحية بباريس ،فقطع لي الشيخ بان الاشعار العربية للايرانيين رفيعة المستوى وفيما يتعلق باللغة العربية لم يشاهد اي اثر للاخطاء في اشعارهم الا انه ينبغي الاعتراف بان الصور الخيالية والصناعات الشعرية لاترتقي مستوى مشاهير الشعراء العرب وما ذلك الا لان اغلبهم كانوا من طبقة العلماء ، ومع ذلك كانت لاشعارهم خصائص من خلالها نلتفت الى انها خراسانية ولما كانت خراسان في عصر ازدهارها الادبي جزءا من الدولة السامانية فتلك الخصائص يمكن ان نلمسها في تلك البيئة قبل ان نلمسها في دولة ال بويه التي كانت تحكم غرب ايران في تلك العصور .

وقد يتفق احيانا ان نعثر على عبارات وتعابير من بين تلك الاشعار بحاجة الى توضيح ومن دون تفسيرها لايمكن لشاعر يجهل الفارسية ان يصل الى المراد منها من جملة تلك الاشعار البيتين التاليين لابي علي الساجي الذي انشدهما في وصف مدينة مرو وهذا الاسم يشبه الى حد بعيد فعل النهي في الفارسية (مرو)(نرو).(يتيمة الدهر : ٤ / ٩١)

بلد طيب وماء معين وترى طيبه يفوق العبيرا
واذا المرء قدر السير عنه فهو ينهاه اسمه ان يسيرا

وكما نشاهد فان الشاعر دون ان يفصح عن اسم المدينة بل القى في روع السامع ان اسم المدينة يتالف من ثلاثة حروف هي :"م "؛"ر" ؛" و".

واحيانا نصادف اشعارا في ذاك العصر في قوالب شعرية تخص الادب الفارسي كالمثنوي رغم انها لاتجاري الاشعار الفارسية التي انشدت في قالب المثنوي ذلك ان الادب الفارسي يحظى بلطافة في الكلام وجمال وروعة في التعابير قلما نشاهدها في الشعر العربي ، اما على اية حال فقالب المثنوي في العربية هو نفسه قد استعمل في الفارسية (وبالطبع يطلق على المثنوي في اللغة العربية بالمزدوجة)، والشعر التالي لابي الفضل احمد بن محمد زيد السكري المروزي

الذي نظم الامثال الفارسية في قالب المثنوي (نفس المصدر : ٤ / ١٠٠).

من لم يكن في بيته طعام فما له في محفل مقام

منيتنـــي الاحســـان احســـانك اتـــرك بحشـــو الله باذنجانـــك
والعنـــز لايســـمن الا بـــالعلف لايســمن العنــز بقــول ذي لطــف

وكان للسكري شغف كبير بترجمة الامثال الفارسية الى العربية ، وقد ترجم بعضها واليك النماذج التالية :(نفس المصدر : ٤ / ١٠١) .

اذا المـــاء فـــوق غريـــق طمـــا فقـــاب قنـــاه والـــف ســـوا

وهو ترجمة للمثل الفارسي : (چون اب از سركذشت جه يك گز وجه هزار صد گز)

ادعـــى التعلـــب شـــيئا وطلـــب قيـل هـل مـن شـاهد قـال الـذنب

وهو ترجمة للمثل الفارسي : (به روباه كفتند شاهدت كو گفت : دمم)

طلـب الاعظـم مـن بيـت الكـلاب كطـلاب المـاء فـي لمـع السـراب

وهو ترجمة للمثل الفارسي : به دنبال استخوان بودن در خانه سگان، همانند جستجوي اب در ميان سراب است).

ونصادف ايضا ابياتا اشبه بالغزل الفارسي وقد جاءت في مجموعة مستقلة لا انها جزء من القصيدة ، والغزل التالي انشده ابو الفضل عبيد الله بن احمد الميكالي وهو من البحر الكامل (نفس المصدر : ٤ / ٤٢٦)

ومهفهـف يهفـو بلـب المـرء منـه شـمائل
فـالردف دعـص هائـل والقـد غصـن كائـل
والخـد نـور شـقائق تنشـق عنـه خمائـل
والعـرف متـل حـدائق نمـت بهـن شـمائل
والطـرف سـيف مـا لـه الا العـذار حمائـل

ان ذكر بعض المصطلحات الفارسية في بعض الاشعار هي من جملة خصوصيات الشعر العربي الذي انشد من قبل الشعراء الفرس والتي تشير الى بعض المناسبات المعروفة لديهم ، مثل مصطلح مهركان وهو اليوم الحادي والعشرون من كل شهر ايراني او اليوم العشرين من شهر مهر على وجه التحديد(المصدر السابق : ٤ / ٣١٢).

جـاءك المهرجـان اطيـب وقـت يتقاضـاك مـا هـو المعهـود
مـن سماع يزيـد فـي الـروح روحـا وغنـاء يصـبو اليـه الوليـد
وشـراب كانـه المسـك نفحـا طيـب الطعـم زانـه التوريـد

لاشك ان الرباعي من اقسام الشعر في الادب الفارسي وقد ادخله الشعراء الفرس الى الادب العربي بشكل الدو بيتي ، واليك هذه الابيات التي انشدها ابو العلاء

السروي في وصف النرجس (المصدر السابق : ٤ / ٥٧).

حـــي الربيـــع فقـــد حيـــا ببـــاكور مـن نـرجس ببهـاء الحسـن مـذكور
كانمـــا جفنـــه بـــالغنج منفتحـــا كـاس مـن التبـر فـي منـديل كـافور

وقد ادى تعقيد المؤسسات الحكومية في العصر العباسي الى الاستعانة بطريقة الملوك والامراء الفرس ولهذا السبب فقد ورد البلاط كتاب مهرة ذوو كفاءة من الفرس نظير آل سهل وهي اسرة معروفة من خراسان (ابن الاثير : الكامل في التاريخ : ٦ / ١٩٧) تقطن مدينة سرخس ونفذوا عن طريق البرامكة جهاز ديوان الخلفاء العباسيين وآل البرمك كال سهل كانوا يعتنقون الزرادشتية ونهضت من خراسان وبعد ان قدمت خدمات جليلة للحكم العباسي اختاروا الاسلام ، وقيل ان فصاحة الفضل بن سهل في الادب العربي كانت قد سبقت اسلامه ، ولنستمع الى جانب من حديثه امام اتباعه ومريديه بعدما برء من علته(وفيات الاعيان : ٤ / ٤١) (ان في العمل لنعما لاينبغي للعقلاء ان يجهلوها تمحيص الذنوب والتعرض لثواب الصبر ،والايقاظ من الغفلة والاذكار بالنعمة في حال الصحة واستدعاء التوبة والحض على الصدقة).

وكان الخراسانيون طيلة القرون المتمادية الى عهد السلاجقة قد خضعوا لنفوذ الثقافة العربية والاسلامية ، وقد اظهروا رغبة عارمة في تعلم المسائل الدينية وقد دعتهم هذه الرغبة الى تعلم اللغة العربية والاستفادة الصحيحة منها مع اعرابها بوجه كامل خلافا للعرب الذين لم يعيروا اهمية للاعراب السبب الذي حدا بالجاحظ الى الاعتقاد انه حينما يتحدث خراساني باللغة العربية مستعينا بالاعراب وايضا تلفظ الحروف واداء المخارج نفهم جيدا انه من خراسان (الجاحظ : البيان والتبيين : ١ / ٧٧) ، كما يعتقد المقدسي وهو رحالة طاف امصار عديدة ووقف على لغات وعادات شعوبها يعتقد ان اهل خراسان لديهم لهجة خاصة حينما ينطقون العربية ، ولاشك ان علماء الدين في خراسان كان لهم نصيب وافر في تعلم اللغة العربية وتعليمها وقد ادى نزوع علماء خراسان نحو الادب العربي في نهاية المطاف الى الالتفات نحو الاحاديث المعتبرة لدى اهل السنة وجمعها كصحيح البخاري وصحيح مسلم.

وقد حظيت خراسان في مجال الادب العرفاني والصوفي بمكانة متميزة في القرنين

الثالث والرابع الهجري وهذا النوع من الادب قد تبلور على يد الكثير من اساطين اللغة العربية مثل كتاب اللمع لابي نصر سراج الطوسي (المتوفى ٣٧٩هـ)الذي يشتمل على كلمات مشايخ الصوفية ومختارات من تصانيفهم ،وكتاب (طبقات الصوفية) لابي عبد الرحمن السلمي (المتوفى ٤٢١هـ) الذي يضم كلمات الصوفية الذين سبقوه .ويعد الكتاب الاخير اول تاريخ منهجي ومشهور لسيرة الاولياء في الاسلام .وكان النثر الصوفي في ذاك العهد يحظى بسبك متكامل للغاية وكانت الصوفية في تلك العهود يبدعون اجمل شعر ونثر عربي دون ان يعيروا اهمية لصياغة العبارة وبسبب اهمية المواضيع المطروحة لم يتسرب اليها اي لفظ او تلاعب بالكلمات ، واليك هذا النص ليحيى بن معاذ الرازي (المتوفى ٢٥٨هـ) ويعد من كبار رجال الطريقة في نيسابور(وفيات الاعيان : ٦ / ١٦٥).

(اللهم ان كان ذنبي قد اخافني فان حسن ظني قد اجارني اللهم سترت علي في الدنيا ذنوبا انا الى سترها في القيامة احوج وقد احسنت بي اذ لم تظهرها لعصابة من المسلمين فلا تفضحني في ذلك اليوم على رووس العالمين يا ارحم الراحمين).

دور الامراء الفرس في دعم الادب العربي:

مع مجيء طاهربن الحسين ذي اليمينين حظيت خراسان باستقلال نسبي ، ويعد الطاهريون من حماة الادب العربي بسبب تعلقهم الشديد بالثقافة العربية الاسلامية مع انهم ينحدرون من اصول فارسية .وقيل ان امرءا كتب حكاية وامق وعذراء بالفارسية واهداها الى عبد الله بن طاهر .فامر بالقائها في البحر قائلا : حسبنا كتاب الله والاحاديث النبوية ولا حاجة بنا الى تلك الحكاية لانها من جعل المجوس . (تذكرة دولتشاه : السمرقندي : ص ٣٥).

هذه الحكاية مع غض النظر عن صحتها وسقمها تدل على نوع التعامل الادبي لهذه الاسرة حيال الادب الفارسي .واذا تاملنا موقفهم من منظار هذه الحكاية نجد ان الطاهريين ليس لديهم اي تعصب عنصري بل كان نزوعهم نحو اللغة العربية يفوق لغة الام اعني الفارسية.

اما ادوارد براون فقد سرد حكاية اخرى وفيها ان طاهر قد أمد من كتب في ذم

العرب بعطايا وعلى فرض صحتها فلعل هذه الاسرة عندما استولت على زمام الامر في خراسان كانت الخلافة العباسية في ذروة اقتدارها وكان الراي العام الى جانبهم ذلك ان دعاية ابي مسلم الخراساني واعوانه اشاعت بين الناس بان العباسيين من آل النبي وهم الورثة الحقيقيين لرسول الله (ص) لذلك فاية مخالفة لجهاز الخلافة تنتهي الى الفشل فلم يجد الطاهريون بد من دعم اللغة العربية على حساب الفارسية، من جهة اخرى فان هجرة قبائل عربية مختلفة الى هذه الديار نجم عنه ازدهار الشعر والموسيقى العربية.

وثمة اسباب مختلفة ادت الى ارتباط مصير بلاط الخلافة العباسية بالطاهريين في خراسان فلم يبق مجالا لازدهار الفارسية في الدواوين الرسمية ، وهكذا اصبحت اللغة العربية اللغة الرسمية والادبية حتى نهاية حكم الطاهريين وانحصرت الفارسية في الحوارات المتداولة بين الناس ،كما ان حضور ابي تمام الشاعر العربي المشهور في ايام حكومة عبد الله بن طاهر في نيسابور(الاغاني : ١٦ / ٤٢١ و ٤٣١ ؛ الصولي : اخبار ابي تمام : ص ٢٢١ و ٢٢٦). وانشاده الشعر العربي في بلاطه يوحي الى سعة انتشار هذه اللغة في اوساط اهل العلم والقلم في خراسان في ذلك العصر بينما كانت الرعية في الشوارع والازقة.

تتحدث بالفارسية وقد ابدى الطاهريون مهارة فائقة في الشعر والنثر العربي ، والكتاب المعروف لطاهر ذي اليمينين الى ولده في باب الحكم والعدل هو آية الروعة في النثر العربي الذي دون على يد فارسي ، واليك بعض ما جاء فيه (ابن الاثير : الكامل في التاريخ : ١ / ٣٦٤).

(اما بعد فعليك بتقوى الله وحده لاشريك له وخشيته ومراقبته – عز وجل – ومزايلة سخطه وحفظ رعيتك في الليل والنهار والزم ما البسك من العافية بالذكر لمعادك وما انت صائر اليه وموقوف عليه ومسئول عنه ...واقم حدود الله عز وجل في اصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ولا تعطل ذلك ولا تهاون به ولاتؤخر عقوبة اهل العقوبة واياك ان تنسيك الدنيا وغرورها هول الاخرة فتتهاون بما يحق عليك فان التهاون يورث التفريط، والتفريط يورث البوار وليكن عملك لله عز وجل).

وشهد القرن الرابع ظهور السامانيين في الشرق كما ظهرت في غرب ايران حكومة البويهيين المقتدرة واستمر النشاط الادبي في اطار نفوذهم حسب ما تقتضيه السياسة وقد خضعت مناطق شاسعة من غرب وجنوب ايران لهيمنتهم ورغم انهم كانوا من الشيعة ولم تكن الخلافة في بغداد تجرأ على مواجهتهم ، الا انه بسبب ارتباطهم التام بالخلافة في بغداد ودنوها منهم كانوا اقرب الى الادب العربي منه الى الفارسي ،وهذا لم يمنع ظهور قلة من الشعراء انشدوا الشعر بالفارسية،ومهما يكن من امر فان وجود المكتبات المعروفة لال بويه في شيراز واصفهان والري وظهور شعراء وكتاب مثل مهيار الديلمي (المتوفى ٤٢٨هـ) وابن عميد (المتوفى ٣٥٩هـ) والصاحب بن عباد (المتوفى ٢٨٥هـ) وابن سينا (المتوفى ٤٢٨هـ) وكان وزيرا لال بويه برهة من الزمن كلها شواهد حاكية عن ازدهار الادب العربي في ظلهم.

وحول اقبال السامانيين على اللغة الفارسية يمكن القول انهم لما وطأت اقدامهم ارض خراسان كانت تلك الديار مسرحا حافلا بالحركات المناوئة للعرب .من جهة اخرى كان الشعور الوطني المناهض للعرب الذي غرسه يعقوب بن الليث الصفارفيها ساهم الى حد كبير على تعزيز العصبيات القومية مما دعى بالسامانيين الى فكرة احياء اللغة الفارسية والتقاليد الايرانية ، واضافة الى ذلك كانوا هم ينحدرون من خراسان وقد ترعرعوا في احضان تلك العادات والتقاليد الخراسانية الا ان الاهتمام باللغة الفارسية من ناحية لم يحول دون ازدهار الادب العربي في خراسان فما زالت الرسائل والكتب تدون بالعربية في الدواوين، ذلك ان الضرورة السياسية تتطلب ان تكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية للبلاط واهم مصدر تطرق الى الادب العربي في خراسان هو كتاب يتيمة الدهر للثعالبي النيسابوري حيث سرد اسماء شعراء انشدوا بالعربية وكان اغلبهم من شعراء وادباء خراسان وكانت اثارهم بمستوى اثار ادباء البلاط البويهي بل قد تفوقها كمية.

وكما مرت الاشارة اليه فقد عد المقدسي اللهجة العربية في خراسان اكثر اللهجات السائدة في البلدان العربية والاسلامية خلوصا ، وكانت الاثار العربية في ذلك العهد تركيباً واختلاطاً بين الثقافات الايرانية والعربية نشات من هجرة الاقوام العربية الى

آفاق الحضارة الإسلامية، العدد «الخامس و العشرون»، ربيع و صيف ١٣٨٩ هـ.ش

تلك الديار.

وبصورة عامة فان الروح الفارسية لادباء خراسان لم تكن واضحة المعالم بسبب النفوذ الواسع للاسلام على حياة الناس ويبدو انه من الصعوبة معرفتها . كما ان رهط من الشعراء الذين ذكرهم صاحب يتيمة الدهر كانوا على اطلاع واسع باللغة الفارسية الى جانب العربية مثل ابو الفتح البستي .

وبالقاء نظرة على اثار كبار الكتاب لتلك العصور كاثار بديع الزمان الهمداني (المتوفى ٣٩٨هـ) ومبتكر فن المقامات في نيسابور وابي البكر الخوارزمي (المتوفى ٣٨٣ هـ) اللذين قضيا شطرا كبيرا من حياتهما في نيسابور او سائر مدن خراسان ، نجد ان النثر قد وصل الى ذروة كماله قبل الشعر ، فان الفن والابداع يلوح في اثارهما ولم يكن هناك من يجاريهم في الفصاحة والبلاغة العربية ، ومع الاسف لم يتمكن الشعر من مسايرة النثر في تطوره وازدهاره قط.

ولكن على الرغم من التقدم السريع والمدهش للنثر كانت هذه اخر حلقة للجهود التي التهمت عدة عقود طويلة للفرس في الادب العربي الذي ابتدا في القرن الاول للهجرة في خراسان وانتشر في سائر نقاط ايران .ولما جلس الغزنويون الاتراك على سدة الحكم تاثروا بالثقافة والحضارة الايرانية رغم انهم كانوا غرباء عن عادات وتقاليد الفرس وكانت حمايتهم للشعر والادب الفارسي يصب في خانة السياسة ، وقد حدت بهم السياسة الى توفير المزيد من الدعم لشعراء وادباء عصرهم وكانت علاقة السلطان محمود بالخلافة في بغداد حسنة ووثيقة بسبب انتماءه لاهل السنة الا ان اهتمامه باللغة العربية لم يكن بمستوى اهتمام ال بويه الشيعة الذين توترت علاقتهم بجهاز الخلافة ولعل هذا الامر يعود الى بعد شقة الغزنويين عن مركز القرار في بغداد وقرب ال بويه منه اذ كلما ابتعدنا عن مركز الخلافة في بغداد كلما لمسنا انتشار اللغة الفارسية اكثر بنحو عدت نيسابور في ايام حكومة عبد الله بن طاهر من كبار حماة الادب العربي ولم تفقد اللغة الفارسية مكانتها ومنزلتها ابدا بين اوساط الشعب ولهذا كلما توجهنا نحو الشرق نلاحظ الانتشار الواسع للغة الفارسية على حساب العربية ،ويتضح ذلك عبر اكتظاظ عدد غفير من الشعراء الفرس في البلاط الغزنوي

آفاق الحضارة الإسلامية، العدد «الخامس و العشرون»، ربيع و صيف ١٣٨٩ هـ.ش

الذين انشدوا في مدح السلاطين الغزنويين باللغة الفارسية ، وبالطبع ينبغي ان لانغفل عن نكتة وهي انهم كانوا ورثة حكومة السامانيين الايرانية الذين لايساور الشك في التزامهم بالعادات والتقاليد الايرانية لذلك كان بقاء الحكم الغزنوي رهن حماية وحفظ تلك العادات والتقاليد واي اغفال وعدم اهتمام بارادة الايرانيين الذين يشكلون غالبية المناطق الخاضعة لنفوذ الحكم الغزنوي من الممكن ان يسفر عن انفصال اجزاء واسعة من هذه الامبراطورية العظمى.

ان اغلب شعراء بلاط السلطان محمود الذين يبلغ عددهم اكثر من ٤٠٠ شاعر كانوا هم انفسهم من شعراء البلاط الساماني مثل : عسجدي ، وعنصري ، وفرخي .ورغم ان الفردوسي لم يكن له حضور في البلاطين الساماني والغزنوي الا ان اثره الخالد (الشاهنامه) دونها في ظل تلك الدولتين .

ان وجود شعراء فرس في البلاط الغزنوي لم يحول دون الاهتمام باللغة العربية ايضا فثمة شعراء انشدوا بالعربية نظير بديع الزمان الهمداني وابو الفتح البستي ،والابيات التالية انشدها ابو الفتح البستي في مدح السلطان محمود الغزنوي (يتيمة الدهر : ٤ / ٣٣٩)

تعالى الله ما شاء وزاد الله ايماني
االفريدون في التاج ام الاسكندر الثاني
اظلت شمس محمود على انجم سامان
وامسى ال بهرام عبيدا لابن خاقان
اذا ما ركب الفيل لحرب او لميدان
رات عيناك سلطانا على منكب شيطان

وكان محمود ومسعود يجيدان العربية وكان انشاد الشعر والموسيقى العربية رائجا في بلاطهما وحتى الرعية كانت تفهم تلك الاشعار وتنتفع بها.(تاريخ البيهقي : ص ٨٦).

وقد ذكر البيهقي ابياتا لابي سهل الزوزني في مدح مسعود الغزنوي حين عودته من صيد الاسود(المصدر السابق : ص ١٥٣).

من كان يصطاد في ركض ثمانية من الضراغم هانت عنده البشر
اذا طلعت ، فلا شمس ولا قمر وان سمحت فلا بحر ولا مطر

ان حماية الغزنويين الاتراك لمذهب اهل السنة واقامة علاقات حسنة مع خلافة

بغداد ترك بصماته على ازدهار اللغة العربية في الامور الرسمية وغير الرسمية في القضايا العلمية والمذهبية ، ولاجل ان تعلم مدى التقدم الذي احرزته اللغة العربية في عصر الغزنويين ورغم مضي اكثر من قرنين على السلطة المباشرة للعرب على تلك الديار وكيف انها ماتزال تتمتع بقوتها وقدرتها ولم تفقدها ،يكفي القاء نظرة فاحصة على كتابي (يتيمة الدهر) الذي كان مؤلفه يعيش في ذلك العهد و(دمية القصر) للباخرزي .فهذان الكتابان سردا اسماء الكثير من الشعراء العرب الذين كانوا في البلاط الغزنوي وتحت حمايتهم حتى ان نقود العهد الساماني وما قبله كانت تضرب باللغة العربية.

وجاء في "سير الملوك" انه في زمن السلطان محمود كانت اللغة العربية تعلم للصغار في المكاتيب وكانت الرسائل الادبية تكتب باقلام كتاب كانوا يعلمون الصغار .(نظام الملك الطوسي : سير الملوك : ص ٢٣٨)

واما السلجوقيين فلم يتمكنوا ابدا من نيل النجاح الذي حظي به الغزنويون في ادارة الحكم ، فقد غاب الاهتمام بالشعر والادب ومع جلوس ملكشاه على العرش .و دخول نظام الملك في بلاطه شهدت العلوم والاداب ثورة عمت معظم ارجاء العالم الاسلامي ، فقد قام هذا الوزير بانشاء مدارس نظامية واستعان بامهر الاساتذة وادى ذلك الى استقطاب العديد من طلاب العلم من كل حدب وصوب ، وكان نظام الملك قد ترعرع في احضان اسرة اشتهرت بحب العلم وكانت له رغبة عارمة في تعزيز العلوم النقلية والعقلية ، من هنا شهدنا في عصره ان المدارس النظامية في خراسان قد دونت تصانيف كثيرة في تلك العلوم باللغة العربية ، وقد ابى الكتاب عن الكتابة باللغة الفارسية .

وكان الغزالي معاصرا ومواطنا للخواجه نظام الملك وكان قد انتدب للتدريس في نظامية نيسابور وبغداد ، وقد دون كافة كتبه باللغة العربية ما عدا رسالتي نصيحة الملوك وكيمياي سعادت وقد قام بتوجيه ذلك بان العامة استطاعت هضم تلك الرسالتين بنحو افضل فهو في مقدمة كتاب كيمياي سعادت يقول : (ان المخاطب بهذا الكتاب هي الرعية التي طلبت كتابته باللغة الفارسية لكي يسهل عليهم فهمها) حتى ان

آفاق الحضارة الإسلامية، العدد «الخامس و العشرون»، ربيع و صيف ١٣٨٩ هـ.ش

شخص الخواجه كان يعتقد ان الكتابة باللغة الفارسية في محضر السلاطين عيب كبير.(الغزالي : كيمياي سعادت : ص ٩).

ومع قتل ملكشاه ومجيء سنجر وجلوسه على العرش اتسعت شقة الخلاف بين الاسرة السلجوقية وبالطبع ترك ذلك انطباعا سيئا على المراكز العلمية والثقافية ، وبعدها لم نشهد وزيرا كالخواجه قاد سكان سفينة العلم كما ان القتال الداخلي والخارجي لسنجر فوت الفرصة امامه من التفرغ لتلك الامور وبذل المزيد من الاهتمام بالعلماء والادباء.

وفي الادوار المتاخرة لحكم ال خوارزمشاه انكشف الحضور الضعيف للغة العربية في خراسان وما وراء النهر بنحو ان اهملت تلك اللغة تقريبا وحلت محلها الفارسية بالتدريج .وكان ضعف وعجز خلافة بغداد وتنامي قدرة ونفوذ خوارزمشاه ، وكذلك بعد الشقة عن مركز الخلافة من جملة العوامل التي ادت الى عدم الاهتمام باللغة العربية.

النتيجة

في اواخر عهدهم وقبل حملة المغول تنامت التصانيف باللغة الفارسية وكان بعض الكتاب يكرهون الكتابة باللغة الفارسية واذا اقدموا على ذلك فيعزون ذلك الى اسباب قاهرة ثم يشرعون بخلق ذرائع ليبرؤا ساحتهم منها .

من هؤلاء رضي الدين ابو جعفر محمد النيسابوري (المتوفى ٥٩٨ هـ) (انظر محمد العوفي : لباب الالباب : ص ٦٣٣)فقد ذكر في مقدمة كتابه مكارم الاخلاق(رضي الدين النيسابوري وخواجه نصير الدين الطوسي : رسالتان في الاخلاق : ص ٢): ورغم ان الكتابة بالنثر الفارسي لم يكن اسلوبي المعهود والمالوف ولكن الايادي البيضاء لولي نعمتي مجير الدين نصر بن احمد الدهستاني هي التي دعت بي الى ذلك نزولا عند رغبته لقضاء حقه لئلا يلزم نكران الجميل).

المصادر

ابن الاثير ، ***الكامل في التاريخ*** ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٦م .

ابن خلكان ، ***وفيات الاعيان***، تحقيق احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت، ١٣١٠ ه .

ابن عبد ربه ، ***العقد الفريد***، الطبعة الاولى ، بيروت ، منشورات مكتبة الهلال ، ١٩٨٦م .

ابن قتيبة، ***الشعر والشعراء***، بيروت ، ١٩٦٤م .

ابن واضح ، ***تاريخ اليعقوبي***، النجف ، ١٣٨٥ هـ

الاصفهاني ، ***ابو الفرج*** ، الاغاني ، بيروت ، دار الفكر ، ١٩٨٦م

براون ، ادوارد ، ***تاريخ ادبيات ايران*** ، منشورات مروارید ، ١٣٤١ ش

تاريخ بيهقي ، ***تصحيح علي اكبر فياض*** ، الطبعة الثانية ، ١٣٦٥ .

تذكرة دولتشاه سمرقندي ، دولتشاه بن علاءالدولة، طهران، خاور، ١٣٣٧، تصحيح محمد عباسي.

تتمة يتيمة الدهر لابي منصور الثعالبي ، عني بنشره عباس اقبال ، طهران ، ١٣٥٣ه.

الثعالبي ، ***يتيمة الدهر***، الطبعة الاولى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٣م .

الجاحظ ، عمرو بن بحر ، ***البيان والتبيين***، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، الطبعة الاخيرة ، ٢٠٠٠م .

حسين عطوان، ***الشعر العربي بخراسان في العصر الاموي***، مكتبة المحتسب ، عمان ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٨ م.

الصولي ، ابو بكر محمد بن يحيى ، ***اخبار ابي تمام*** ، تعليق خليل محمد عساكر ، المكتب التجاري للطباعة والنشر ، بيروت، ٢٠٠٢ م .

ضيف ، شوقي ، ***تاريخ الادب العربي*** ، القاهرة ، دار المعارف، ١٩٦٠ م .

الطبري ، ***تاريخ الطبري*** ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، ١٩٣٩م .

الطوسي ، ***نظام الملك*** ، سياست نامه (سير الملوك) ، ١٣٤٨.

الغزالي ، محمد ، ***كيمياي سعادت*** ، باهتمام خديو جم ، المنشورات العلمية والثقافية ، ١٣٦١ .

العوفي ، محمد ، ***لباب الالباب*** ، مطبعة الاتحاد ، ١٣٣٥ .

النيسابوري ، رضي الدين الطوسي ، ***خواجه نصير الدين ، دو رساله در اخلاق*** (رسالتان في الاخلاق) ، مطبعة جامعة طهران ، ١٣٤١ .

Aliterary history of Persia –Brown firdowsi to sadi.